

# حلم الدولة اليهودية

## والوطن القومي اليهودي

لمؤرخ كبير

مضى اليوم أكثر من شهرين منذ بدأت فلسطين تورتها القومية المضطربة ؛ وقد حسب الاستعمار يوم نشوبها أنه أمام حركة ندمر عادية يسهل قمعها بالوسائل المعتادة فإذا به أمام ثورة قومية عامة ، وعزم راسخ على النضال ، وممركة حياة أو موت من شعب يؤثر السقوط في ميدان الكفاح الشريف ، على الاعدام البطيء المنظم

ولقد بسطت ( الرسالة ) تقنية فلسطين في مقال سابق ، بين فيه كاتبه مبلغ ما تروح تحته هذه الأمة الصغيرة الباسلة من صنوف الاستعباد الرهق ، السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، سواء من جانب السياسة البريطانية التي قضت باختيار فلسطين منزلاً للوطن القومي اليهودي أو من جانب الصهيونية التي تعمل لتوطيد دعائم هذا الوطن اليهودي بكل ما وسعت من وسائل الضغط المالي والثقافي متمتعة في جهودها برعاية السياسة البريطانية ومؤازرتها وإذا كنا لانستطيع الآن أن نتنبأ بما تفيده السياسة البريطانية من هذا الدرس ، أو بما ترمع أن تتخذ من الخطط الجديدة في المستقبل نحو فلسطين ، فانا نستطيع من جهة أخرى أن نقول إن هذه الفترة المنيفة التي قامت بها فلسطين سيكون لها أثرها العميق في صدع أركان الوطن القومي اليهودي ، وفي التذليل على ما في سياغته وتكوينه من أوجه الخيال والعوامل المصطنعة التي تتعارض مع الحقائق التاريخية والعملية

إن إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، هو الخطوة العماية الأولى في برنامج الصهيونية الحديثة ؛ وهو التمهيد لإنشاء الدولة اليهودية التي هي غاية الصهيونية الحقيقية ؛ واليهودية تحمل بانشاء هذا الوطن القومي وتعمل له منذ أكثر من قرن ؛ ولكن برنامج اليهودية النهائي لإنشاء الوطن القومي لم يوضع إلا في أواخر القرن الماضي ، حيث بدأ زعماء اليهودية يجمعون المال لإنشاء المستعمرات في فلسطين ويبدلون جهودهم لدى الباب العالي ، وحيث أذاع تيودور هرتسل ، رسول الصهيونية الحديثة

وروحها المضطرب ، رسالته الشهيرة عن الدولة اليهودية : « Die Judenstaat » وهرتسل كاتب وصحفي يهودي نمسوي ، ظهر في أواخر القرن الماضي في فيينا بكتاباته المثيرة في سنيل القضية اليهودية ، فالت مسيحه أفقاً صالحاً لأن معظم الدول الأدرية كانت تجيش يومئذ بعوامل المحسومة السامية ، وتلقى اليهودية الاضطهاد المنظم في كل مكان . وفي كتاب « الدولة اليهودية » يعرض هرتسل فكرة الوطن القومي عبرضاقوبيا ، ويرى أن يتخذ هذا الوطن صورة دولة يهودية في فلسطين تكون تحت سيادة الباب العالي ، وتؤدي له الجزية ، وتكون البقاع المتقدمة منطقة مستقلة ذات نظام خاص ؛ فصادت الدعوة نجاحاً عظيماً بين أقطاب اليهودية في أنحاء العالم كله ، وانتظمت الحركة تحت لواء هرتسل وزعامته . وفي أغسطس سنة ١٨٩٧ ، عقد مؤتمر يهودي عام في بازل (سويسرا) برئاسة هرتسل ، ووضع فيه برنامج الصهيونية الرسمي ، وعرفت غاياتها ووسائلها على النحو الآتي :

« تسمى الصهيونية لتحقيق للشعب اليهودي إنشاء وطن قومي في فلسطين يتمتع بالضمانات التي يقرها القانون العام ، ويرى المؤتمرون أن يتدرج بالوسائل الآتية لتحقيق هذه الغاية :

- (١) ان يشجع استثمار فلسطين بواسطة الزراعة والمال والصناع
- (٢) ان ينظم العالم اليهودي بأسره وان يحمش في الجماعات المحلية أو العامة طبقاً لقوانين البلاد المختلفة
- (٣) أن تقوي لدى اليهود عواطف الكرامة القومية والاعتزاز بالجنس

(٤) ان تبذل المساعي اللازمة للحصول على التصريحات الرسمية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية

هذا هو هيكل الصهيونية وبرنامجها العملي ؛ وقد تطورت ظروف العالم السياسية منذ عصر هرتسل ومؤتمر بازل ، واستطاعت الصهيونية بمد جهود ومحاولات عديدة أن تاتي فرصتها في الحرب الكبرى ، وان تغفر بتحقيق الشطر الأول من برنامجها بانشاء الوطن القومي في فلسطين ، ولكن لا تحت سيادة الباب العالي ، وإنما تحت السيادة البريطانية ، وذلك بمقتضى عهد بلفور الذي قطمته الحكومة البريطانية على نفسها في نوفمبر سنة ١٩١٧

وقد مضى على قيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين زهاء تسعة عشر عاماً ، وأصبح في ظل الانتداب البريطاني ، وطبقاً

القرون ، حتى أنهم كانوا يرغمون على السكن والاحتشاد في أماكن خاصة تسمى (الجيتو) . ولكن الحقيقة أن اليهودية هي التي اختارت لنفسها هذه العزلة ، وهذا الاستقلال الخالد عند الشعوب التي استقرت فيها . ذلك أن اليهودية كانت وما زالت تعتبر دائماً أن الدين هو جامعة الجنس بين اليهود ، وأن اليهودية هي ملاذ الشعب اليهودي أينما حل ، وبمباراة أخرى إن الدين والجنسية بالنسبة لليهود هما وحدة لا تتجزأ . وهذا هو الخطأ الخالد الذي وقعت فيه اليهودية ، والذي أثار عليها في كل العصور ريب الشعوب وحقدتها ، والذي هو في الواقع أكبر عامل في تحريك الخصومة السامية . وهذا هو الأساس الخاطي الذي تبنى عليه فكرة الوطن القومي الذي يجتمع فيه اليهود من جميع الجنسيات واللغات وقد فطن إلى هذا الخطأ الذي هو عنوان التعصب الخالد بضع أقطاب اليهودية ، وحاولوا أن يدعوا إلى فصل الدين عن الجنسية ، وإلى تشبه اليهود بسائر الشعوب في اعتبار الدين مسألة روحية محضة لا علاقة لها بالجنسية ؛ دعا إلى ذلك الفيلسوف الألماني اليهودي موسى مندزون في القرن الثامن عشر ، ورأى أن تتخذ القومية اليهودية صبغة محلية ، فيتمدو اليهود من أبناء البلد الذي استوطنوه مع احتفاظهم بتراتهم الروحي ؛ وآزر مندزون في هذه الدعوة بعض أكبر المفكرين الألمان من غير اليهود مثل الكاتب الشهير لسنج وغيره ؛ ولكن هذه القومية المعتدلة التي أمل بها جو التسامح الذي نعمت به اليهودية يومئذ لم تلق كبير تأييد ، ولم يطل أمدها ، واستمرت الفكرة الدينية القديمة على قوتها وحدثها

والوطن القومي اليهودي يقوم كما قدمنا على نفس هذا الأساس ، أي على جامعة الدين ؛ وهذه أكبر تقط الضعف المنوي في بنائه ، فالقوميات والشعوب الحديثة لا تقام باسم الدين ؛ ولم يبق الدين في بلد من بلاد العالم التمددين أساساً للدولة ؛ ثم إن هذا الضعف المنوي في الوطن اليهودي يتخذ مظاهره المادية ، ففي فلسطين يجتمع الآن يهود من جميع الجنسيات والثقافات واللغات والنزعات السياسية ، ومن المحقق أن العمل الاجماعي المتناسق بين هذه العقليات والبيئات النباتية صعب التحقيق . والواقع أن معظم اليهود المهاجرين يقدون على فلسطين لبواعث اقتصادية قبل كل شيء ، ولكي يحققوا لأنفسهم بعض وسائل العيش التي يفتقدونها في بلادهم الأصلية ؛ ومنهم من يقد قراراً من الاضطرار الذي يفرض

لنصوص الانتداب ذاته ، من الوجهة الدولية ، نظاماً شرعياً ممتزجاً به من جميع الدول الكبرى ؛ وفي هذه الفترة بذلت اليهودية جهوداً جبارة لإقامة هذا الصرح القومي الذي تحمل به منذ الآماد ، فتدفقت الهجرة اليهودية إلى فلسطين حتى أصبح عدد اليهود فيها زهاء نصف مليون ، وأقيمت المستعمرات والشاريع اليهودية الضخمة في جميع أنحاء البلاد ، وانشئت مدينة تل أبيب لتكون عاصمة الوطن الجديد ، وأقيمت جامعة عبرية لتعمل لأحياء التراث اليهودي الروحي والفكري ؛ وعلى الجملة فقد استطاعت اليهودية أن تحقق في فلسطين كثيراً من المظاهر المادية والاقتصادية والاجتماعية للوطن القومي اليهودي

ولكن هذه المظاهر على ضخامتها وقوتها تبدو اليوم ضئيلة واهنة أمام ثورة الشعب الذي يقام هذا الوطن في أرضه ، وعلى أنقاض حقوقه وموارده ؛ فالיום يهاجم الوطن اليهودي ، ويطمئن من كل صوب ، وتقوض مستعمراته ومنشأته ، وتمطل جميع مرافقه ومصالحه ، وتشل جميع حركاته ومعاملاته ، ويكاد يندو في حالة حصار مطبق ؛ كل ذلك تحت بصر القوى الاستعمارية التي هرعته إلى فلسطين لحمايته . وقد شمعت الصهيونية من قبل غير مرة بمخاطر الفورات القومية الفلسطينية على صرحها ، ولكنها لم تكن تتصور أن الخطر قد يبلغ هذا المدى من الروعة ، أو أن هذه الأمة العربية الصغيرة يمكن أن تضطلع بمثل هذا الكفاح الشاق الجلد ؛ وإذا لم يكن نعمة ريب في أن القوى الاستعمارية الناشئة ستتغلب في النهاية على الكفاح القومي الباسل ، فإنه لا ريب أيضاً في أن الوطن القومي اليهودي سيخرج من المعركة منخناً بالجراح ، وقد وهنت قواه المادية والمعنوية ، وزادت شكوك الصهيونية وهواجسها نحو المستقبل الغامض

والواقع أن فكرة الوطن القومي اليهودي لم تكن بنت القرن التاسع عشر فقط ، ولكنها ترجع إلى أقدم العصور ؛ فقد حطمت مملكة أورشليم اليهودية منذ نحو ألفي عام ، وشتت اليهود في أنحاء الأرض ، تحمل اليهودية بالعود إلى أرض إسرائيل ؛ ومع أن الجماعات اليهودية قد استقرت في الأراضي التي استوطنتها مدى القرون ، غير أنها لم تندمج قط في الشعوب التي عاشت بين ظهرانيها ، ولبتت تكون دائماً مجتمعات مستقلة . وترجع اليهودية تلك الظاهرة إلى نظم الاضطهاد والعزلة التي كانت تفرض على اليهود ، وحرمانهم من الحقوق السياسية والمدنية طوال